خمس سنوات مضت على رحيل إدوارد سعيد ، ولكنه بقي مالئ الدنيا وشاغل الناس:

كتاب الاستشراق بعد ثلاثة عقود

أ.د. عبد النبي اصطيف

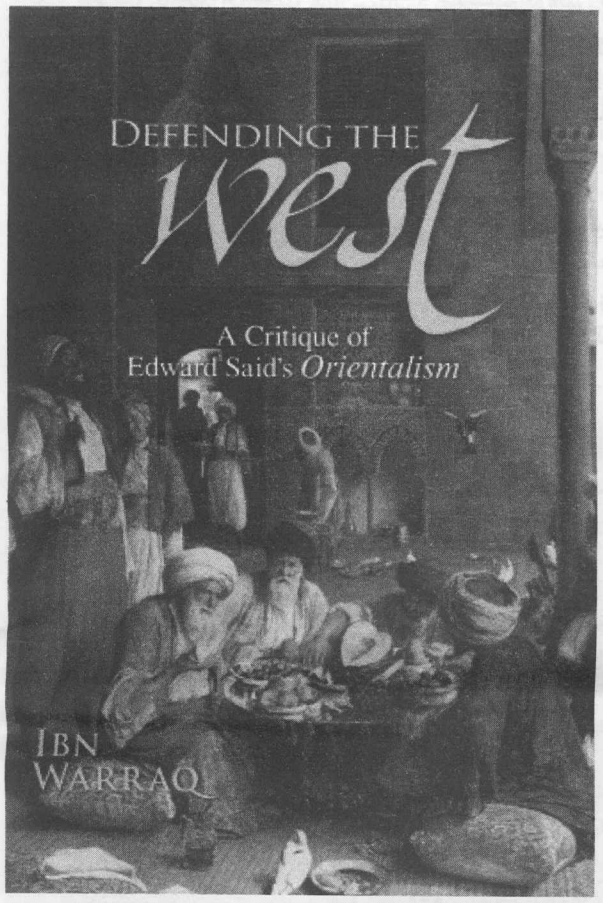

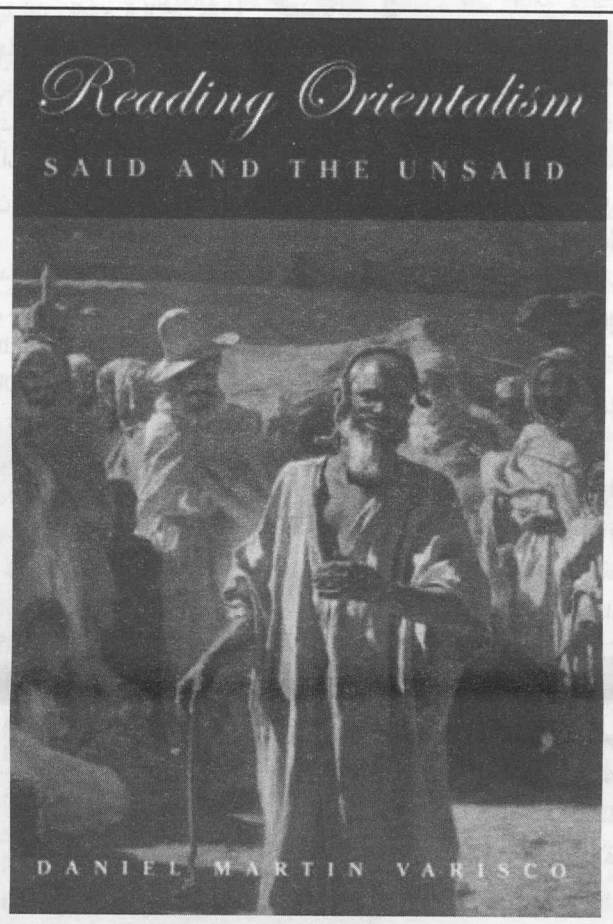

عندما صدر كتاب الاستشراق Orientalism لإدوارد سعيد عام ١٩٧٨م، وانقسم الناس حوله بين مؤيد لأطروحته ومنكر لها، تنبأ العديد- ممن لم ترقهم جرأة سعيد في مواجهة هذا التقليد الثقافي العريق- بأنه سيكون مجرد فقاعة أوفورة غضب، سرعان ما تفقد ما تحتويه من هواء، أو هراء، جاء به، من لا يعرف، سعيد الخارجي الذي تنكّر-على حد تعبيرهم- لأفضال المستشرقين وأياديهم البيضاء" على الشرق وأهله.

ولكن الكتاب/الفقاعة في رأي بعضهم، ونفثة الغضب في رأي بعضهم الآخر، لا يزال مقروءاً ومتداولاً على نحو واسع، حتى أن محرك غوغل يحتفظ بأكثر من ثلاثين ألف مادة تتصل به، مقابل نحو خمسة ملايين مادة يحتفظ بها عن إدوارد سعيد.

لقد كتب الكثيرون عن الاستشراق، في الشرق والغرب معاً، بالعربية وبالفرنسية والإنكليزية وغيرها، ولكن أياً من هذه الكتابات لم يظفر باهتمام يضارع الاهتمام الذي لقيه كتاب إدوارد سعيد. نعم لقد كتب الداخليون من العرب والمسلمين (من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وأحمد شفيق باشا ومحمد فريد وجدي، ومحب الدين الخطيب، وعمر فروخ، والخالدي، ومحمد البهي، ومالك بن نبي، ومحمد محمد حسين، وأنور الجندي، ومحمد الغزالي، ونحمد قطب، ومحمد زقزوق، ومحمد شامة، وغيرهم) منتقدين هذا التقليد الثقافي، ومشيرين إلى ما ينطوي عليه من مغالطات وأهواء وانحيازات، بل وأخطاء، ولكن الغرب لم يكترث كثيراً بما كتبوا، ولم يعامله بالجدّية التي عامل بها كتاب سعيد، ولعل طيف المعارف الواسع، الذي استجاب ثقاته لما جاء في هذا الكتاب، مؤشر واضح على خطورة ما واجه به سعيد الغرب مما يتصل بالمعرفة الاستشراقية خاصة، والمعرفة التي تتناول "الآخر" عامة. فقد راجع الكتاب كبار المتخصصين في الأنثروبولوجيا، والدراسات الأمريكية، والدراسات العربية، وعلم الآثار، وتاريخ الفن، والدراسات التوراتية، والاقتصاد، والدراسات الثقافية، والأدب الإنكليزي، ودراسات السينما، ودراسات النوع/الجندرgender ، والجغرافية، والتاريخ الفكري، والنقد الأدبي، والتاريخ الوسيط، والفلسفة، والعلوم السياسية، والدراسات الدينية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع وغيرها (قراءة الاستشراق، لدانييل مارتن فاريسكو، مطبعة جامعة واشنطون، ٢٠٠٧، ص ١٢).

ولعل السؤال الذي يراود أي متتبع لمصير هذا الكتاب على مدى العقود الثلاثة المنصرمة، هو ما سرّ استمرار اهتمام الباحثين والنقاد والقراء به ؟

قد يكون السر في "خارجية" سعيد، أي في كونه "خارجياً" عن الحقل المعرفي الذي يدرسه وهو الاستشراق، فهو دارس للأدب الإنكليزي والأدب المقارن. ومع أنه كان مطلعاً اطلاعاً واسعاً على الثقافة الغربية، غير أنه لم يكن متخصصاً بالدراسات العربية، أو الدراسات الشرق أوسطية، أو الدراسات الإسلامية، كما هو شأن من سبقه من نقاد الاستشراق من أمثال أنور عبد الملك، وعبد اللطيف الطيباوي، وهشام جعيط، وآخرين.

وقد يكون السر في "استخدامه الإنكليزية" لساناً لنقده الاستشراق، والإنكليزية قد غدت اليوم بفعل العولمة، وبخدمة أهلها لها، من أوسع اللغات العالمية انتشاراً، إذ يستخدمها أكثر من ثلث سكان العالم (نحو ملياري مستخدم).

وقد يكون السرّ في "داخلية" سعيد، أي في كونه ينضوي تحت موضوع الاستشراق، الذي يتناول الشرق: تاريخاً ومجتمعات وثقافة، فالرجل في نهاية المطاف، وكما أكّد هو نفسه ذلك في أكثر من مناسبة، عربي ذو ثقافة غربية. وطبيعي أن سعيداً بوصفه موضوعاً للاستشراق لن يروقه ما يكتب عن تاريخه، ولا عن مجتمعات الأمة التي ينتمي إليها، ولا عن ثقافاتها التي سعى طوال حياته إلى تنمية معرفته بها، مع أنه كان يعيش في المجتمع الغربي.

وقد يكون السرّ في حساسيته النقدية المرهفة، فهو ناقد مقارن من أبرز نقاد الأدب في هذا العالم في الربع الأخير من القرن العشرين. وتدبّره لنصوص المستشرقين كان تدبّرَ الناقد الأدبي الذي يقرأ السطور، وما بين السطور، وما يحيط بها ، وما بين يديها وما خلفها، ومن ثم فإن حصيلة هذه القراءة ستكون حصيلة غنية تطفئ ظمأ المعني بهذا التقليد الثقافي، لأنه سيقرأ ما فات الكثير من نقاد الاستشراق الذين لم يتوقفوا عند العقلية التي أنشأت الإنشاء الاستشراقي المستند إلى نظرة مثروخة للوجود، نظرة تسودها الثنائية البغيضة: "نحن" و "هم"، وما ينبثق عنها من ثنائيات "الشرق" و "الغرب"، و"هنا" و"هناك" وغيرها.

وقد يكون السر في سعة ثقافة إدوارد سعيد الذي كان يتقن القراءة في تسع لغات، الأمر الذي مكّنه من أن يظفر بطيف واسع من القراء- طيف عابر للثقافات، عابر للغات، عابر للمعارف. ولاشك أن ترجمة الكتاب إلى ست وثلاثين لغة قد ساعد على ذلك.

وقد يكون كل ماتقدّم، ولذا فإن المرء لا يستغرب توالي ظهور الكتب التي تناقش كتابه بشكل خاص، والتي ربما كان من أبرزها ثلاثة ظهرت خلال السنوات الماضية هي كتب دانييل مارتن فاريسكو المعنون بـ قراءة الاستشرق: سعيد/ما الذي قيل ولم يقل:Reading Orientalism: Said and the Unsaid والذي نشرته مطبعة جامعة واشنطن في سياتل عام ٢٠٠٧م، وكتاب ابن ورّاق المعنون بـ الدفاع عن الغرب: نقد لكتاب إدوارد سعيد، Defending the West: A Critique of Edward Said's Orientalism ونشرته كتب بروميثيوس عام ٢٠٠٧م، وكتاب روبرت إيرفين التوق إلى المعرفة: المستشرقون وأعداؤهم Lust For Knowledge: The Orientalists and their Enemies الذي صدر عن دار بنغوين في لندن عام ٢٠٠٦م، فضلاً عن كتب أخرى عديدة ظهرت بعد وفاته وتناولت الرجل وآثاره، وأعداد خاصة، أو ملفّات خاصة تناولت وجوهاً عديدة من نتاجه الغزير، أصدرتها كبريات المجلات العالمية في الغرب والوطن العربي.

ومن المؤسف حقاً أن اهتمام العرب بإدوارد سعيد لم يستمر بالدرجة نفسها التي كان عليها في حياته، فهم لم يهتموا بما نشر من آثاره بعد وفاته عام ٢٠٠٣م، ولم يهتموا أيضاً بما نشر عنه من كتب، أو أعداد خاصة من مجلات مرموقة، أو ملفات خاصة ضمتها صفحات بعض هذه المجلات. وباستثناء بعض أصدقائه ومريديه من أمثال محمد شاهين، وفخري صالح، وكمال أبو ديب، وصاحب هذه السطور، فإن تركة سعيد لم يُنتفع بها الانتفاع الحق في الثقافة العربية المعاصرة، مع أن هذا الرجل قد ترك بصماته على الربع الأخير من القرن العشرين، حتى أن قلة قليلة من المثقفين والمؤلفين والباحثين والنقاد في العالم الغربي قد نجت من عصا سعيد الساحرة الآسرة والمتمثلة بأفكاره التي غيّرت التفكير الإنساني وبخاصة في مسألة علاقة الأنا بالآخر، فضلاً عن صوته الأصيل والقوي وبيانه السامي في الدفاع عن القضية الفلسطينية التي خسرت بموته أكبر محام دافع عنها وعن عدالتها.

والحقيقة أنه مهما كان موقف المرء من كتاب إدوارد سعيد الاستشراق فإنه لابدَّ مُقِرّ بأن الرجل قد فتح عيون الغرب على حقائق مروّعة في هذا التقليد الثقافي والبحثي والفني، الذي طالما دلّ به على الشرق وأهله. وقد صدمت هذه الحقائق الغرب صدمة جعلته يعيد النظر في كثير من الافتراضات الضمنية، والمسلّمات، والمقولات السائدة في معرفته عن "الآخر" بشكل عام، وعن العرب والمسلمين والشرقيين بشكل خاص.

وأول هذه الحقائق أن "الشرق" الذي هو موضوع "المعرفة الاستشراقية"، "شرق مخترع" "شرق ملفّق"، إنه مجرد تصوّر غربي عن "الآخر" الذي بدا في المخيلة الغربية النقيضَ التام لكل ما ألصقه الغرب بذاته. إنه "سلبُ" "الإيجاب" الذي يمثّله الغرب نفسه. وهو تصور بدا ضرورياً للغرب الذي أكّد من خلاله "هويته" التي تنطوي على مقدار كبير من العنصرية.

وثاني هذا الحقائق حقيقة أخرى متصلة بسابقتها مفادها أن الاستشراق، إذا ما قرئ القراءة المتفحصة، التي قدّم سعيد أنموذجاً رائعاً عنها في كتابه، يحدّثنا عن منتجه-الغرب أكثر مما يحدثنا عن موضوعه-الشرق. فهو يشي بمنشئه أكثر مما يبين عن مادته.

أما الحقيقة الثالثة فإنه لم يسهم بأية صورة من الصور في الارتقاء بوجوه الحياة المختلفة لموضوعه-الشرق، ولم يقدّم للشرق ولا للشرقيين أية خدمة، خلا حفز حركة الاستعمار على غزوه واحتلال أراضيه واستغلال ثرواته وقمع شعوبه وإجهاض أية عملية تنمية حقيقية فيه. إن المعرفة نعمة، ولكن "المعرفة الاستشراقية" كانت نقمة ووبالاً على الشرق وأهله، بعد أن غدت أداة وظّفها الغرب على نحو فعّال في احتواء الشرق وتدجينه والتحكم بمقدراته وتقرير مصائر شعوبه، ونهب خيراته.

وأما الحقيقة الرابعة فإن هذه "المعرفة الاستشراقية"، التي يُفترَض بها أن تبدّد جهلَ الغرب بالشرق، ومن ثم تُزيل العداوة والبغضاء بينهما، والإنسان عدوّ ما يجهل، لم تسهم على الإطلاق في التقارب ما بين الشرق والغرب، بل إنها على العكس من ذلك قامت بتعميق الهوة بينهما، وأجّجت نار العداوة بين شعوبهما، وحسب المرء أن يشير إلى تصورات الغرب عن الشرق وما يحمله الأول في ذهنه عن الآخر من صور، وإلى تصورات الشرق عن الغرب وما يحمله هذا الشرق في ذهنه عن الغرب من صور، حتى يتبين أية خدمة قدّمها هذا الاستشراق للعلاقات بين الأمم والشعوب الشرقية والغربية.

وأما أخطر هذه الحقائق، فهي حقيقة ابستمولوجية تتصل بطبيعة المعرفة الاستشراقية ووظيفتها وحدودها ومنزلتها بالمقارنة مع المعارف النظيرة التي أنتجها الغرب عن الثقافات الأخرى غير الشرقية. إن من يقارن ما أنتجه الغربيون عن الشرق والشرقيين من "معرفة" بما أنتجه بعضهم عن بعضهم الآخر ليُصعَق بتدني مستوى "المعرفة الاستشراقية" بالمقارنة مع مستوى المعرفة التي أنتجها البريطانيون على سبيل المثال عن الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمان أو الروس أو دول الشمال الاسكندنافي.

بل إن المرء ليعجب أيّما عجب عندما يقارن تأهيل المستشرق التقليدي بتأهيل دارس أي دولة غربية من الغربيين أنفسهم. وكيف للمرء عندها أن يرضى عن هذه المعرفة أو يقبل بما تنطوي عليه من آراء ونظريات وافتراضات ومسلّمات تفتقر إلى الحد الأدنى من الأدلّة التي تشفع عادة دراسات الغربيين عن أنفسهم أو عن جيرانهم الأقرب في القارة الأوربية أو حلفائهم في أمريكا الشمالية.